التقارير

آباي قونانبايف.. أيقونة الأدب الكازاخي

شيرين ماهر
باحثة بالهيئة العامة للاستعلامات

الملخص :

ترتبط كازاخستان بالعالم العربي، ليس فقط عبر الدين الإسلامي، بل وأيضًا ثقافيًا وحضاريًا وتاريخيًا، كما تتمتع بتراثٌ شفهي ثري بدأ في الظهور منذ القرن الخامس عشر، حيث كانت دول شرق آسيا محط أنظار المثقفين، ومَوطن الملهمين والمصلحين، في العصور القديمة. ومرورًا بالتيارات التنويرية الحديثة؛ استأثرت كازاخستان بالعديد من المفكرين والعلماء الذي قدموا إسهامات مؤثرة، ورؤى فكرية وثقافية متنوعة. يعد الشاعر الكازاخي والمفكر المتنور «آباي قونانبايف» رائداً في تطوير نوعٍ جديدٍ من الأدب الوطني الكازاخي المكتوب. هو أيضاً مؤسس الأدب الكازاخي القومي وأعظم حكماء كازاخستان ومن أوائل شعراءها الذين خاضوا غمار التجربة الإنسانية. فهو شاعر لجميع فصول الحياة، كما أن عالميته وصدقه يفسران سبب بقاء تراثه الشعري على مر الأزمان، هو أيضاً مؤسس الأدب الواقعي في كازاخستان، ويطلقون عليه بطل الصداقة مع الشعب الروسي.

والواقع، تكمن الأسئلة الفلسفية في جوهر العديد من قصائد آباي في تناول الجوانب الوجودية لحياتنا وما بعدها. تميزت أعمال «آباي» بقدرتها على تعزيز وإبراز المفاهيم الخاصة بثقافة سكان السهوب الكازاخية، كما أن إبداعات «آباي» تخدم قضايا نبيلة سامية، ومنها التقارب بين الشعوب والحضارات وكيف يبني الإنسان نفسه ومجتمعه.

Abstract:

Kazakhstan is linked to the Arab world not only through the Islamic religion, but also culturally and historically. It also has a rich oral heritage that began to emerge since the fifteenth century, as East Asian countries were the focus of intellectuals' attention, and the home of inspirations and reformers, in ancient times. passing through modern enlightenment currents; Kazakhstan has counted many thinkers, scholars and writers who made influential contributions and diverse intellectual and cultural visions. The Kazakh poet and enlightened thinker »Abay Konanbaev« is a pioneer in the development of a new type of written Kazakh national literature. He is also the founder of national Kazakh literature, the greatest sage of Kazakhstan and one of the first poets to delve into the human experience. He is a poet for all seasons of life, and his universality and honesty explain why his poetic legacy has survived over time. He is also the founder of realistic literature in Kazakhstan, and they call him a hero of friendship with the Russian people.

Indeed, philosophical questions lie at the core of many of Abai's poems in dealing with existential aspects of our lives and beyond. The work of "Abay" was distinguished by its ability to promote and highlight the concepts of the culture of the Kazakh steppe people, and the creations of "Abay" serve noble and lofty causes, including the rapprochement between peoples and civilizations and how a person builds himself and serves his society.

مقدمة :

ترتبط كازاخستان بالعالم العربي، ليس فقط عبر الدين الإسلامي، بل وأيضًا ثقافيًا وحضاريًا وتاريخيًا، فمن أرض كازاخستان ولد كل من الفارابي الفيلسوف الكبير والظاهر بيبرس القائد العسكري. كما تتمتع بتراثٌ شفهي ثري بدأ في الظهور منذ القرن الخامس عشر، حيث كانت دول شرق آسيا محط أنظار المثقفين، ومَوطن الملهمين والمصلحين، في العصور القديمة. ومرورًا بالتيارات التنويرية الحديثة؛ استأثرت كازاخستان بالعديد من المفكرين والعلماء الذي قدموا إسهامات مؤثرة، ورؤى فكرية وثقافية متنوعة. ولعل الاهتمام بالإنسان كان أحد أسرار اعتناء كازاخستان بأعمدة التراث القديم، والمُضي قُدما نحو حركة إحياء هذا التراث في الفترة الأخيرة. يعد الشاعر الكازاخي والمفكر المتنور «آباي قونانبايف» رائداً في تطوير نوعٍ جديدٍ من الأدب الوطني الكازاخي المكتوب. هو أيضاً مؤسس الأدب الكازاخي القومي وأعظم حكماء كازاخستان ومن أوائل شعراءها الذين خاضوا غمار التجربة الإنسانية؛ حيث مثل نموذجًا فريدًا للشخصية الأدبية المبدعة. امتد تأثيره الفكري والأدبي عبر كتاباته وأشعاره التي لا تزال منهجاً للشعب الكازاخي بكافة أطيافه، فيما تعالج أشعار آباي وأفكاره مجموعة واسعة من القضايا الحياتية، بدءًا من الطبيعة والحب وحتى الحياة والموت. فهو شاعر لجميع فصول الحياة، كما أن عالميته وصدقه يفسران سبب بقاء تراثه الشعري على مر الأزمان.

نكرس الحديث عن هوية الأدب الكازاخي من حيث السمات والخصائص وأهم التيمات، مروراً بأهم الأسماء البارزة على الساحة الأدبية الكازاخية، مع سبر أغوار تجربة الشاعر الأيقوني «آباي قونانبايف» مروراً بفلسفته الشعرية ومسيرته الحياتية والأدبية في محاولة استكشاف المساحات ذات التأثير في مشروعه الأدبي، الذي مهد لمثل هذة المكانة الرفيعة التى لا يزال يحتلها حتى الأن لدى الجمهور الكازاخي، بصفة خاصة، والأسيوي والعالمي، بصفة عامة.

الأدب الكازاخي.. الخصائص والسمات

يقصد بالأدب الكازاخي، الأدب المكتوب باللغة الكازاخستانية أو الكازاخية، حيث أنشأه مؤلفون كازاخستانيون على أراضي كازاخستان منذ القرن الخامس عشر. وعلي الرغم أن اللغة الكازاخية التي تنتمي، في الأساس، إلى المجموعة التركية .

في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، في بلاط القراخانيين، ظهرت الأعمال الرئيسية الأولى للأدب الكازاخي- قصيدة (معرفة النعمة) (١٠٦٩) ليوسف هاس حاجب من (مواليد ١٠١٥) والتي تتألف من ١٣ ألف مقطع. وكانت القصيدة مبنية على شكل حوارات وأقوال وتستند إلى حلقات وأساطير من مناطق جيتسيو وحوض بحيرة إيسيك كول وكاشجاريا، وغيرها. تقوم القصيدة على شخصيات تاريخية حقيقية وترتكز فكرتها الرئيسية علي أن المعرفة هي المصدر الوحيد لرفاهية كل من الحكام والناس. كذلك أثرت المعتقدات الدينية على حركة الأدب والإبداع لدي الكازاخ، حيث انتشر بين القبائل البدوية الناطقة بالتركية في كازاخستان، حتى القرنين التاسع عشر والعشرين، نوع من الديانات التوحيدية يسمي «التنجيرية» نسبة إلي الإله تنجيري، إله السماء والقوة التي تتحكم في العالم، وانتشرت عبادة الجبال وكذلك الشامانية.

ومن القرن السادس إلى التاسع، جاءت البوذية إلى الأراضي الكازاخستانية ثم انتشرت المسيحية والمانوية وقد كانت معتقدات سكان كازاخستان في العصور الوسطى متنوعة وتوافقية. وبدءًا من القرن التاسع، بدأت الصورة تتغير تدريجيًا، حيث واصل الرُعاة الرُحل اعتناق عبادة تنجيري، فيما انتشر الإسلام في المناطق الزراعية المستقرة، وبدأ الأدب الديني في التطور. وخلال فترة انتشار الإسلام، ظلت اللغة الأدبية متنوعة وغير متجانسة، بينما تطور الأدب المكتوب، بشكل رئيسي، في الحضر. كما لعبت أعمال شعراء وكتاب الدراويش دورًا مهمًا في الحياة الثقافية لسكان الحضر. ومن أشهرها أعمال خطيب الإسلام خوجة أحمد يسوي (توفي عام ١١٦٧)، وهو مؤلف لمجموعة من القصائد الدينية والصوفية المعروفة بـ(كتاب الحكمة). وكان يسوي يدعو في عمله إلى الزهد والتواضع، مؤكدًا أن الطريق إلى الحق هو الطريق إلى الله. ويحتوي الكتاب

على الكثير من المعلومات الثقافية والتاريخية والاثنوجرافية حول القبائل في ذلك الوقت.أما تلميذ يسوي، سليمان بكير جاني، هو مؤلف مجموعة (كتاب نهاية العالم). كانت مؤلفات يسوي وبكير جاني كتّبا إلزامية في المدارس الدينية في آسيا الوسطى وكازاخستان على مدى القرون التالية.

كذلك تعود أقدم أعمال الفن الشعبي الشفهي في كازاخستان إلى القرن الخامس عشر، حيث انتشرت القصائد الوطنية والسياسية المؤثرة في القرن السادس عشر. كما ازدهر في القرن السابع عشر تقليد يقضي بعقد مسابقات في الأغاني والشعر بين كبار الشعراء. كذلك ازدهرت أعمال أكينز مخامبيت أوتيميسوف، شنيياز زاريلجاسوف، سويونباي أرونوف في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، كما ظهرت تيمات جديدة؛ ومنها دعوات لمحاربة البكوات. في الوقت نفسه ظهر في الأدب اتجاهًا محافظًا يمثّل الماضي الأبوي ويمجد الدين. كما ظهرت تيمات حديثة حول حرية الرأي والدفاع عن العدالة الاجتماعية.

لقد أخذ الأدب الكازاخي المكتوب بشكله الحداثي يتشكل فقط في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، متأثرًا بالاتصال والحوار مع الثقافة الروسية. ويقف في مقدمة مرحلة تطور الأدب الكازاخي، المعلمون الكازاخستانيون الأوائل؛ وهم: تشوكان فاليخانوف وإبراي التينسارين وأباي قونانباييف. في تلك الفترة تشكلت أسس الأدب الكازاخي المعاصر وظهرت اللغة الأدبية الكازاخية في شكلها الحالي، واستوعبت العملية الأدبية الأشكال والأنواع الأدبية الكبرى مثل الرواية وغيرها، وتكونت عدة ائتلافات أدبية منها مجموعة (الكتبة)، كما صدرت جريدة (الكازاخ) التي تجمع حولها أبرز أدباء العصر: أ. بيتورسونوف، إم دولاتوف، إم زومابايف. وبعد اندلاع الثورة البلشفية في روسيا، بدأت تتغير موضوعات الأدب تمامًا، وبدأت العناصر الاشتراكية وموضوعات البناء الاشتراكي تسيطر على العملية الأدبية، فيما لمعت أسماء من الأدباء من أنصار الثورة الاشتراكية مثل أكينز دزامبول دزامبايف ونوربيس بايجانين ودوسكي أليمبايف ونارتاي بيكيجانوف وعمر شيبين وكينين أزربايف.

تعد أعمال الشاعر الوطني الكازاخستاني دزامبول دزامبايف (١٨٤٦-١٩٤٥) هي الأشهر خلال الحقبة السوفيتية، وقد تم تسجيل الملاحم والأغنيات

مثل (خان وأكين) و(حكاية الكسلان) وغيرها استنادًا لأعماله وكلماته. وبعد ثورة أكتوبر ظهرت موضوعات جديدة في ابداعه مثل أنشودة أكتوبر ووطني و لينين وستالين. تغني في أشعاره وأغانيه بأبطال السلطة السوفيتية وترجمت أعماله إلى اللغة الروسية ولغات شعوب اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفيتية وروجت أعماله واستخدمت بالكامل من قبل الدعاية السوفيتية. وخلال الحرب الوطنية العظمى كتب دزامبول العديد من الأشعار الحماسية التي كان يدعو من خلالها الشعب السوفيتي للكفاح والنضال ضد العدو النازي. حصل عام ١٩٤١ علي جائزة ستالين. لقد جمع دزامبول في شعره بين الأشكال الشفوية والأدبية، ما أكسب شعره أسلوبًا خاصًا تميز بالثراء الروحي والسلاسة في السرد.

في عام ١٩٢٦ تم إنشاء الرابطة الكازاخية للكتاب البروليتاريين، والتي حاربت في السنوات الأولى من وجودها المظاهر القومية في الأدب. وفي عام ١٩٣٤ تأسس اتحاد الكتاب في كازاخستان، وبدأت أقسام لاحقة من الكتاب الروس والأويجور في العمل في هيكله. انجذب الأدباء الكازاخ في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية إلي الأنواع الأدبية واسعة النطاق مثل الروايات والثلاثيات والملاحم والروايات الشعرية ومنهم (موكانوف، مصطفين، شاشكين، إرجالييف، كايربيكوف، مولداجالييف، إلخ) والأشكال الدرامية المتقدمة (خوسينوف، أبيشيف، تزيباييف) وكذلك الخيال العلمي (سارسكييف، أليمباييف). وفي سبعينيات القرن الماضي جذب انتباه القراء أعمال الشاعر الكازاخستاني أولجاس سليمينوف الذي ولد عام ١٩٣٦م وقد اشتهر بالعديد من الدواوين الشعرية مثل (وقت الشروق الجميل) ١٩٦١ و (فوق الأنهار البيضاء) ١٩٧٠ و(مكررا في الظهيرة) ١٩٧٥. كما روج سليمينوف إلي فكرة قرابة الكازاخ والسومريين القدامى ولفت الانتباه إلي الأصل التركي للعديد من الكلمات في اللغة الروسية، كما وجه الأنظار إلي التأثير القوي للثقافة التركية علي الروسية. كما تميز الأدب الكازاخي في نهاية التسعينيات من القرن العشرين وبداية القرن الحادي والعشرين بمحاولات لاستيعاب التجارب الغربية لما بعد الحداثة في الأدب وإمكانية استخدام طرق تفكيك وضغط النص. كما استمر الأدب الكازاخي المعاصر في التطور في سياق الحضارة العالمية، واستيعاب وتطوير الاتجاهات الثقافية الجديدة، مع مراعاة

إمكانياتها ومصالحها الخاصة.

«آباي قوانبايف».. شاعر كازاخستان العظيم

يعد قونانبايف علامة مُشرِقة في تاريخ بلاده كفيلسوف وشاعر ومترجم ومُلحّن ومؤسس للأدب الوطني الحديث، حيث تتجلى روح الأمة الكازاخيّة في قصائده وأغانيهِ، وكلماته التنويرية، كما تعكس أعماله وتجربته شكلاً عميقاً من حياة السهوب والإيمان واللغة، حيث أن إرثه لا يقدّر بثمن، فهو بمثابة المرشد الأخلاقي للشعب الكازاخستاني في طريقه إلى المستقبل، كما أنه شخصيّة ملهمة بحكمتها لكل من يقرؤه في أنحاء العالم. ويعد الأديب والشاعر والفيلسوف "آباي قونانبايف"، مصدر فخر واعتزاز للشعب الكازاخي، وهناك متحف وجائزة يحملان اسمه في كازاخستان، كما يعد يوم ميلاده عطلة رسمية في البلاد. هو أيضاً مؤسس الأدب الواقعي في كازاخستان، ويطلقون عليه بطل الصداقة مع الشعب الروسي. ومنذ ربع قرن مضى أطلق الرئيس الأول وزعيم الأمة الكازاخية نورسلطان نزاربايف مبادرة للاحتفال بمرور ٠٥١ عامًا على ميلاد آباي تحت رعاية منظمة اليونسكو. والواقع لا يتوقف الكازاخ عن الحديث حول حياة آباي وأعماله، حتى أصبحت تعاليمه وقيمه بمثابة ارشادات روحية للشعب اكازاخي.

وُلد «آباي» في ١٠ أغسطس ١٨٤٥ في جبال جنكيز في منطقة سيميبالاتينسك. كان والده، قونانباي أوسكنباي، من أصحاب الأراضي، وينتمي لأحد العائلات البارزة في كازاخستان الشرقية، حيث كان شيخًا مؤثرًا للغاية في عشيرة توبيكتي. درس آباي في المدرسة التي كان يديرها المُلا أحمد ريزا، في سَمِبالاتِنْسك، كما درس كذلك في مدرسة روسية. تلقى تعليمًا شرقيًا كلاسيكيًا ودرس القراءن الكريم واللغة العربية والفارسية واللغات الشرقية الأخرى، وتعرف على الأدب الفارسي الكلاسيكي- الفردوسي والنظامي والسعدي والحافظي وغيره.

تأثر آباي بأفكار الأدباء المسلمين والروس والغربيين. وقد ترجم عدة أعمال للغة الكازاخية، وحاول التقريب بين الثقافتين الكازاخية والروسية. كما كان لديه العديد من االأصدقاء الروس المثقفين المنفيين، ما جعله يتأثر بأفكارهم

الليبرالية، فيما اعتبر آباي أن مهمته تعريف الكازاخستانيين بإنجازات الأدب العالمي، حيث قدم بعضًا من أفضل الترجمات لأعمال بوشكين وليرمونتوف وكريلوف، بالإضافة إلى بايرون وجوته وهين إلى اللغة الكازاخستانية، وكذلك أثر الفلاسفة الكلاسيكيون - سقراط وأفلاطون وأرسطو على فكر وقناعات آباي. لقد مكّنه تعليمه من تبني أفكار الأدب الروسي وتطويعها وفقاً للاحتياجات الكازاخية، ليساهم بذلك في تطوير ثقافة علمانية هناك. وعلى الرغم من كونه رجلًا شديد التدين، إلا أنه تمت الإشادة به أيضًا باعتباره المستنير الأعلى في كازاخستان، حيث قدم آباي موضوعات وأفكار جديدة في أشعاره، والكثير من قصائده عبارة عن مونولوجات غنائية، إذ تمتزج في أشعاره موضوعات عن الطبيعة والحب بالإضافة إلى تأملات فلسفية وأفكار تنويرية وإنسانية. كما لم يُنشر سوى القليل من قصائد آباي في حياته. وكانت أول مجموعة له بعنوان (قصائد للشاعر الكازاخي آباي إبراهيم قونانباي)، وجرى نشرها في سانت بطرسبرج عام ١٩٠٩.

تقاعد أباي في سن ال ٢٨ واعتزل أداء الوظائف الإدارية، وكرس نفسه بالكامل للتعليم الذاتي. أخذ يكتب الشعر ويدرس الثقافة الروسية بشكل مكثف. وكتب الأغاني الكازاخية على كلمات مقتطفات من يفجيني أونيجين لبوشكين. يتألف التراث الأدبي لأباي من أشعار وقصائد وترجمات شعرية، وبعض الأعمال النثرية. ويتميز شعره بالبساطة الكلاسيكية والتأنق في اختيار التقنيات الفنية. كما قدم أشكالًا شعرية جديدة وقد تميز شعره بالمعاني الفلسفية العميقة والنغمة الوطنية. وتطرق إلى الموضوعات التاريخية والتربوية والقانونية، وكان يدعو الناس للشروع في طريق التطور الثقافي التقدمي والعمل الجاد والصادق.

لقد كان آباي مثقفًا منفتحاً، ويحظي بإشادة وتقدير لأراءه، كذلك من قبل الإدارة الروسية، خاصة في النزاعات القانونية. ولكن في حياته الخاصة، واجه العديد من المآسي، حيث فقد اثنين من أبنائه بسبب مرض السل عام ١٨٩٥ وعام ١٩٠٤. كما توفي آباي في ٦ يوليو ١٩٠٤ عقب وفاة ابنه الثاني ودفن في iabedihZ . وفي الأربعينيات والخمسينيات من القرن الماضي، حوّل الكاتب الكازاخستاني مختار أيوزوف حياة آباي إلى ملحمة من أربعة مجلدات، حيث

يمكن القول إنها بمثابة أعظم إنجاز للأدب الكازاخستاني، وهي موسوعة حقيقية للثقافة والعادات الكازاخستانية، لا مثيل لها في ثرائها وعمقها النفسي.

فلسفة «آباي» الشعرية

تكمن الأسئلة الفلسفية في جوهر العديد من قصائد آباي في تناول الجوانب الوجودية لحياتنا وما بعدها، وتبدأ إحدى هذه القصائد، التي كُتبت عام ٥٩٨١، بمفارقة واضحة، يقول فيها: «قد تكون الطبيعة مميتة، لكن البشر ليسوا كذلك». بالنسبة لقارئ غربي تلقى تعليمه في إطار عقلاني، فإن هذا بيان متناقض، حيث يبدو أن العكس هو الصحيح: يوجد البشر في العالم لفترة محدودة، بينما الطبيعة في عالميتها ستكون دائمًا هناك. لكن نظرة آباي للعالم تتمحور حول الإنسان بصرامة، حيث يرى بإن تفوق الإنسانية في الكون، والاحترام الأساسي للإمكانات والإنجازات البشرية يحول العلاقة: الطبيعة مميتة، والبشر خالدون! إذ لم يكن لدى آباي أوهام حول الجنس البشري، حيث يصف السلوك البشري على أنه يسيطر عليه الجشع والخيانة والازدراء للآخرين والفخر والجهل، لكنه يصر على أن نفس هؤلاء البشر، سواء كأفراد أو كأمة، أحرار في اتخاذ خيارات أخلاقية. لقد استخدم آباي الشعر لتجسيد أجواء حياة السهوب، وذلك طوال أوقات مختلفة من السنة، حيث أن دورته في الفصول ملحوظة بشكل خاص لأنها تنحرف عن التصورات النموذجية للطبيعة في الآداب الوطنية الأخرى، ما يمنح شعر آباي بُعدًا لا لبس فيه من كازاخستان.

في قصائد «آباي» التربوية، يلعب الفيلسوف الكازاخي دور مدرس الحياة الذي يشرح لمستمعه، أو القُراء، القواعد والمبادئ التي يجب اتباعها وأيها يجب تجنبها، وإن تعميم هذه القصائد يبدو موثوقا للغاية. ومع ذلك، فإن الحجج التي يتم التعبير عنها ليست معيارية بالمعنى التقليدي، حيث يتم التعبير عن قواعد الحياة المسموح بها رسميًا. بل إنها مشتقة مما تعلمه آباي نفسه في الحياة، حيث يقول في إحدى قصائده: دع إرادتك تحمل قلبك إلى الصواب». وغالبًا ما يسأل آباي نفسه في شعره: لماذا أستخدم الشكل الشعري في المقام الأول؟ من هو جمهوري المستهدف؟ وهو يجيب بعقيدة صيغت

بصرامة: «ليس من أجل التسلية، أكتب قصتي، ولا أحشوها بكلمات سخيفة. إنها للشباب الذين أكتب لهم، لمن يكون سمعهم حادًا وحواسهم يقظة، إلى الرجال الذين لديهم رؤية ويسارعون في الرد سوف يفهمون الرسالة التي أريد إيصالها لهم».

ومن بين القضايا الرئيسية في شعر آباي أمته، حيث يتساءل عن أفراد شعبه من الكازاخ، من هم، وما هي قيمهم؟ عندما يفكر آباي في هذه الأسئلة، يكون قاضيًا صارمًا في معالجة الرذائل الوطنية، كما يراها. وعندما يتحدث آباي عن نفسه، فإن رغبته في التعبير عن تجارب حياته بأمانة قصوى تفوق أي اعتبار آخر، وينطبق هذا بشكل خاص على عدد من قصائد آباي التي تلخص نتائج صراعات حياته، ما يوازن بين ما أدركه على مر السنين. وعند قراءة النصوص الشعرية لآباي اليوم، يتضح أنها تحتوي على عناصر متعددة وتسمح بمجموعة متنوعة من الأساليب التفسيرية، وكلها مشروعة بطريقتها الخاصة. ومع ذلك، فإن أضمن طريقة لفهم أعمال آباي بطريقة صحيحة الاعتماد على نواياه الأصلية. ليس من المبالغة القول إن أي استكشاف لكازاخستان دون الانغماس في إرث آباي سيكون غير مكتمل.

كتب آباي الشعر في سن مبكر، إذ ألّف حوالي ١٧٠ قصيدة، وترجم بعض أعمال الغربيين، ووضع ألحان لبعض القصائد. تميزت أعمال «آباي» بقدرتها على تعزيز وإبراز المفاهيم الخاصة بثقافة سكان السهوب الكازاخية، كما امتدت إبداعات «آباي» إلى فضاءات أوسع في عموم دول العالم، كالحث على التمسك بالقيم الأصيلة وتقبل الحق ورفض الباطل بكل أشكاله، ما ساهم في تكريس وإبراز المفاهيم الخاصة بثقافة الإنسان في السهوب الكازاخية، المطالبة باتباع الصفات الحميدة للمسلمين الأوائل، والمحافظة على العادات والتقاليد المتوارثة جيلاً بعد جيل، كما أن إبداعات «آباي» تخدم قضايا نبيلة سامية، ومنها التقارب بين الشعوب والحضارات وكيف يبني الإنسان نفسه ويخدم مجتمعه.

كان آباي أول من ابتكر فكرة تنظيم أبيات من القصائد المتعلقة بالفصول الأربعة. كما نظم أبيات شعرية تسخر من الانتهازية وتوجه اللوم نحو

المسؤولين الأقوياء، ما ساهم في تعزيز مكانة قصائده السردية الطويلة مثل "إسكندر"، المكرسة للإسكندر الأكبر، و "مزجود" و "أسطورة عظيم"،. اجتذب آباي العديد من الأجانب - بما في ذلك التتار والروس - الذين أرادوا الاطلاع على قدرات آباي الابداعية واللغوية والشعرية بشكل مباشر، بينما تم توزيع نسخ مكتوبة بخط اليد من أعمال آباي على القراء، حيث كان آباي أيضًا مؤلفًا موهوبًا أنشأ نغمات لقصائده، ما جعلها أكثر شعبية، وكما قال العالم والكاتب مختار اويزوف: "لقد حمل شعره مثل الشعلة المحترقة عبر كآبة الجهل والتحيز الذي غلف السهوب الكازاخستانية، وكشف عن آفاق جديدة لشعبه ووعد بزوغ فجر جديد."

لقد جذبت أعمال «آباي» الانتباه في العديد من دول العالم. وبمبادرة من كازاخستان ودعم من منظمة اليونسكو، تم الاحتفال في عام ٢٠٢٠ بالذكرى الـ ٥٧١ لميلاد الشاعر العظيم على مستوى العالم. كما يجري القيام بأنشطة هادفة لإدخال أعمال آباي في التداول العلمي الدولي. حيث ترجمت أعماله إلى عشر لغات عالمية، كما تم إرسال أعماله المترجمة إلى المكتبات والمراكز الثقافية فى مائة دولة حول العالم، فيما قال سفير كازاخستان بالقاهرة ارمان إساجالييف، إن مصر مهد الحضارات وبلد الأزهر الشريف ورحلة العائلة المقدسة ومركزا رئيسيا في العالم العربي والإسلامي وتم اختيارها لتدشين النسخة العربية لموسوعة الأدب الكازاخي في إطار برنامج تحديث الوعي والثقافة الكازاخية في عصر العولمة الذي أعلن عنه الرئيس الأول نور سلطان نزاربابيف، بهدف التعريف بالأدب والفن والمسرح وغيرها من المجالات الثقافية لكازاخستان.

والواقع أن قصائد «آباي» تؤكد على هويته كمدرس للحياة، هوية اكتسبها من خلال العديد من الدروس الصعبة. الحق في سماع أو قراءة شعره هو حق منفتح على تلك الدروس، في تبادل الخبرات؛ أولئك الذين يسعون للترفيه يجب أن يبحثوا في حياتهم عن مكان آخر. وكما هو الحال مع جميع الفنانين العظماء، تم تفسير إرث آباي بشكل مختلف في كل فترة لاحقة، حيث ركز المتخصصون السوفييت بشدة على الأهمية الاجتماعية لعمله، بينما في ١٩٢٠، كان التركيز أكثر على الجوانب الفردية والروحية لنصوصه. وبعد عقود فيما بعد الاتحاد

السوفيتي، أصبحت التفاصيل الوطنية لأعمال آباي هى الأكثر هيمنة.

وصية «آباي» الروحية.. بقلم الرئيس الكازاخي

وفي الذكري الـ ١٧٥ لوفاة «آباي كوبنانيف»، **كتب رئيس جمهورية كازاخستان نور سلطان نزار بايف مقالًا بعنوان «وصية آباي الروحي» نشرتها سفارة كازاخستان بالقاهرة على صفحتها على فيس بوك، جاء فيها:**

«لقد أثبت تاريخ البشرية مرارا وتكرارًا أن الشخصيات العظيمة تولد في عصور حرجة عندما ينهار القديم ويبدأ الجديد في الظهور، فينتقل المجتمع من حالة إلى أخرى. ولو اجتمعت في شخصية ما صفات معينة ووجدت عوامل خاصة للزمن الحرج فإن ذلك كله يحدد المهمة الفريدة لتلك الشخصية ومصيرها المتميز. إن شخصية آباي قونانباي ظاهرة بارزة للفترة الانتقالية الحرجة، فهو بمثابة «جسر ذهبي» يربط الماضي بالمستقبل. تزامنت حياة آباي مع وقت فقد فيه المجتمع الكازاخي نظام الحكم السياسي السابق القائم على سلطة الخان. لم يعد المجتمع الكازاخي حرا كما كان في الماضي فوجد نفسه أمام مستقبل غامض. بدأت نموذج حياة الرحل في الاندثار وأخذت ملامح الحياة المستقرة في الانتشار داخل المجتمع الكازاخي أكثر فأكثر. انتهى عصر البراعة العسكرية وحل محله عصر المعرفة الحديثة. وأصبح الشاعر العظيم والمفكر العبقري آباي مؤسسا لعصر التنوير والنهضة في السهوب الكازاخية في القرنين التاسع عشر والعشرين. وعدّ تراثه الذي لا يقدر بثمن دليلا أخلاقيا يرشد الشعب الكازاخي في طريقه إلى المستقبل.

لقد أشار العالم البارز قودايبرجين جوبانوف، وهو يقارن آباي بأعلام الثقافة الأوروبية، أن «آباي» بمثابة «دانتي في زمنه» حيث أدى دورًا تاريخيًا بلسانه الفصيح. ولعب دورًا تاريخيًا بوصفه سيد للكلمات، كما حقق إنجازات كبيرة في الفن الكلامي الشعبي من خلال قوة الاختراق الإبداعي. وبذلك استطاع تغيير نظرة المجتمع إلى العالم وتركيبته النفسية والأخلاقية. لو كان «بوشكين» من أبرز أعلام الشعب الروسي و«وليام شيكسبير» من أعلام الإنجليز و«يوغان غوته» من أعلام الألمان و«والت ويتمان» من أعلام الأمريكان، فإن «آباي»، بلا

شك، أب روحي للشعب الكازاخي. وبعد سقوط الاتحاد السوفيتي، الذي بدا أنه غير قابل للانهيار، ظهرت أمامي مهمة بناء دولة مستقلة جديدة في تلك الفترة المتقلبة وغير المستقرة. حينها لجأت مرة ثانية إلى وصايا آباي الحكيم ومن خلال تأملاتي فيها رسمت في ذهني صورة لمستقبل بلادي.

نتيجة تعمقي في عالم «آباي» لاحظت أن الإيقان بأهمية ومكانة هذا العبقري شيء والوصول إلى التفكير المماثل لتفكيره والتفاهم معه والاعتراف بأنه شريك أمين لحياتك شيء آخر تمامًا. فإذا تساءلتم «من أين بدأت معرفتي لآباي»؟ فلا أبالغ لو قلت إنني من صغري ذقت روح إبداعه. لقد تمتعت جدتي وأمي بفن إلقاء الشعر ومعرفة الأدب الكازاخي الشعبي. في إطار التربية التقليدية المنزلية كنت أسمع منهما عديدا من القصص الشعبية والأساطير والحكايات الشعرية. فأصبح ذلك بداية طريقي إلى عالم آباي. بعدما أنهيت الصف التاسع، أخذتني أمي، إلى كاسلكيلين وألحقتني هناك بالمدرسة الثانوية باسم «آباي» التي فَتحت أمامي آفاقًا جديدة وإمكانيات عظيمة. هناك أدركت أن كوني تلميذًا للمؤسسة التعليمية الحاملة اسم الشاعر العظيم شرف كبير لي من ناحية ومسؤولية كبرى من ناحية أخرى. وبالطبع كان زملائي يعرفون ويحفظون عن ظهر قلب الأعمال الأدبية لآباي المقررة في البرنامج التعليمي المدرسي والتي تناولت موضوعات التنوير والعلوم والإنسانية والطبيعة. لكنني شخصيًا تأثرت، بشكل خاص، بملحمة «إسكندر» المليئة بالتأملات الفلسفية العميقة والتي كنت أتمتع بإعادة قراءتها مرات عديدة.. كنت أرسم في مخيلتي عالم اليونان القديمة حرصا على معرفة المزيد عن الأنظمة السياسية وتاريخ الفكر الفلسفي في العصور القديمة. هكذا حثني إبداع آباي على توسيع دائرة اهتماماتي ومعارفي.

وعلى خُطى حكمة «آباي» التي تقول «الساعي ينتظره التوفيق» قررتُ بعد التخرج في المدرسة عام ٨٥٩١ أن أتوجه إلى ساري أركا- قلب الأرض الكازاخية- ثم إلى أوكرانيا وبالتحديد مدينة دنيبرودزرجنسك. كانت هذه إحدى نقاط التحول في حياتي. «كن أجيرا وسافر خارج بلدك ثم ارجع إلى وطنك بربح» – أليس هذا ما نصح به آباي الشباب الكازاخ ؟! كان يقصد بهذا الكلام: «لا تقسّم العالم إلى قريب وبعيد، بل تجوّل حول العالم كله بحثا عن المعارف،

تعلم المهن، اعمل بجد واكتسب رزقا». لقد تعوّد أبناء جيلي من صغرهم على العمل الشاق. فنشأنا ونحن نساعد أباءنا في أعمالهم. أثناء عملنا جنبا إلى جنب مع الكبار كنا نقوم بقص العشب ورعي الغنم وتقطيع الحطب وزرع الخضار والفواكه وغير ذلك الكثير. لاحقا عندما غادرت قريتي متوجها إلى مدينة تيميرتاو واصلْتُ عملي في مصنع «كارميتكومبينات» بين الأفران النارية والمعادن المنصهرة. فعندما أتذكر حياة أبناء جيلي أدرك أننا جميعا نُعدّ تلاميذ مدرسة آباي العظمى لأننا كنا نستمد المعرفة من بحر أفكار آباي العظيم»....

هكذا عكست كلمات الرئيس الكازاخي مدى مكانة هذا المبدع الفذ، باعتباره معلمًا وملهمًا للإنسانية وليس للشعب الكازاخي، فحسب، فهو علامة مشرقة في التاريخ كفيلسوف وشاعر ومترجم ومُلحّن ومؤسس للأدب الوطني الكازاخي الحديث، كما تجسد أعماله حياة الأفراد والمجتمعات بصورة حثيثة، فيما تعكس أعماله مفردات وصور بلاغية تستعرض مدى عمق وقوة اللغة في ترسيخ القيم والأعراف، ليكون رمزاً للأديب والحكيم والفيلسوف الانسان قبل أى شيء.